غـــرره ودرره

ذَلَّ مـن يَغبـطُ الذَّليـلَ بعيـشٍ ربَّ عيـشٍ أخـفُّ منـه الحِمَامُ

المعنى: من راقته حياة الذليل، وأعجبه ما هو عليه من سوء الحال فتمنى أن يكون نظيره فليس بعاقل؛ لأنه رضي لنفسه منزلة الهوان. فالذليل لا يغبط على عيشه وإنما يغبط العزيز، والموت أيسر على النفس الكريمة من الحياة في الذل.

كُـلُّ حِلـم أتـى بغيـر اقْتِـدَارٍ حُجَّـةٌ لاجِـئٌ إليهـا اللِّئَـامُ

المعنى:الحلم يكون عن قدرة، فإذا رأيت العاجز قد اعتصم بالحلم، فذلك برهان لؤمه، فهو إنما ينفي عجزه عن الانتقام بحجة أنه حليم وليس بالحلم، حتى إذا سنحت فرصة نقض الحلم ووثب على الخصم وانتقم لنفسه.

مَـن يَهُـن يَسْهُل الهَـوانُ عليْهِ مـا لِجُـرحٍ بميتٍ إيـلاَمُ

المعنى: الإنسان إذا كان هينًا في نفسه بأن لم يعرف لها حقها من العزة، سهل عليه احتمال الهوان فلا يتألم منه، كالميت لا يتوجع من الجرح الذي كان يتوجع منه وهو حيّ لفقدان الإحساس.

وفي اختيار المتنبي التشبيه بالميت إشارة إلى أن المهين حياته موت، ووجوده عدم، فما أطيب الحياة مع الكرامة، وما أخبثها مع الهوان.

أفاضلُ الناسِ أعراضٌ لذا الزمنِ يخلو من الهمِّ أخلاَهُم من الفِطَنِ

المعنى: الفُضلاء من الناس هدف للزمان، يرميهم بنازلاته وصروفه، ويقصدهم بحدثانه ومحنه، فلا يزالون في أحزان تترى، وأوصاب تتكرر من جراء تفكيرهم في عواقب الأمور، واستنفاد وسعهم في مهام الأعمال، وإنما يخلو من الهم من كان خلوًا من العقل، غفلًا من الذكاء.

وإذا أتَتْكَ مذمَّتِي من ناقِصٍ فَهِي الشَّهادةُ لي بأنِّي كَامِلُ

المعنى: هجو الناقص إياي برهان فضلي ودليل كمالي، فعادة الناقص أن يطري نظراءه الناقصين وأعمالهم، ويذم أضداده أولي الفضل وأمورهم، فالناس أعداء ما جهلوه، وإنما يعرف الفضل من الناس ذوُوه.

ومن يُنفقِ الساعاتِ في جَمْعِ مالِهِ مخافةَ فَقرٍ فالذي فعلَ الفقرُ

المعنى: من أنفد ساعات العمر في جمع المال خشية إملاق، كان ذلك الفعل هو الإملاق بعينه، فإنك إذا أفنيت دهرك في جمع المال ولم تنفقه وتتمتع به، فقد مضى عمرك في الفقر.

ومِن نَكَدِ الدنيا على الحُرِّ أن يَرى عَدوًّا لَه ما مِن صَداقَتِه بُدُّ

المعنى: من عُسر الحياة على كريم النفس؛ أن يحتاج فيها إلى مصانعة عدوه ومداراته؛ ليأمن شره، حيث لا يجد مفرًا من إظهار المصادقة والمداراة دفعًا لغائلته.

وأُكبرُ نفسِي عن جزاءِ بغيبةٍ وكُلُّ اغتيابٍ جُهدُ مَنْ ما له جُهدُ

المعنى: أرى نفسى أكبر وأرفع من أن أكافئ العدو على إساءته بالاغتياب،

فإن الاغتياب طاقة من لا طاقة له بمحاربة عدوه، فإنما يغتاب الناس العاجز الذي لا يستطيع أن يثأر بنفسه، ولا يقدر أن يداوي بالشر من الشر.

من الحلمِ أن تستعملَ الجهلَ دُونه إذا اتَّسعتْ في الحلْمِ طُرْقُ المظالمِ

المعنى: إذا أفضى حلمك إلى طمع الناس فيك وظلمهم إياك، ورأيت أنه قد اتسعت عليك أبواب المطامع، وتشعبت طرق المظالم، فمن الحلم أن تلجأ إلى الشدة حتى تكبح جماح الطامعين، وتفل «تكسر» شَباة «حدّة» الظالمين.

إذا لم تكنْ نفسُ النَّسيبِ كأصْلِه فماذا الذي تُغْني كرامُ المناصبِ

المعنى: إذا كان المرء شريف الأصل دنيء النفس، فلا يفيده شرف أصله مع دناءة نفسه، فالمرء بفضيلته لا بفصيلته، ومن هذا يؤخذ أنه لا ينبغي أن يعتمد الإنسان في فخره وشرفه على سوى نفسه.

والهَمُّ يخْتَرِمُ الجسيمَ نحافةً ويشيبُ ناصيةَ الصَّبي ويُهرِم

المعنى: الحزن يفتك بالنفوس فتكًا ذريعًا، ويحطم الأبدان تحطيمًا، ويذهب بجسامة العظيم الجسم ويوقعه في الهزال، وإذا تمكن من الصبي أشابه، قبل إبان المشيب، وبدل صباه هرمًا، وقوته ضعفًا، وصحته سقمًا، وكلّ ذلك ناشئ عن شدة الاضطراب من الحادثات، والتأثر بالمرجفات.

ذو العقلِ يَشقَى في النَّعيمِ بعقلِه وأخو الجهَالةِ في الشقاوةِ ينعمُ

المعنى: العالم البصير بعواقب الأمور شقيّ في الحياة وإن طاب عيشه، وتدفقت نعمته؛ لأنه دائم التفكير كثير الاشتغال بمهام الأعمال.

أما الجاهل، فهو ناعم البال، مُطمئن القلب لغفلته وجهله بتحوّل الأحوال وتقلّب الحوادث، وإن كان سيئ الحال رديء العيش.

لا يسلَمُ الشرفُ الرفيعُ من الأذى حتى يُراقَ على جوانبه الدَّمُ

المعنى: العليّ المنزلة في قومه محسود لا يزال يُرمى بالمكاره، فلا يبرأ شرفه من الأذى حتى يسيل الدم على جوانبه، إذ قد يبعث الاحتفاظ بالشرف على سفك الدماء، وإزهاق الأرواح.

والظلمُ من شِيَمَ النفوس فإن تَجِدْ ذا عِفةٍ فَلعلَّةٍ لا يظلِمُ

المعنى: الظلم من طبائع النفوس؛ لأنها مكتنفة بالمطامع، محفوفة بالشهوات، فكانت مجبولة على الظلم لسد مطامعها، وقضاء شهواتها، فالإنسان ظالم بالطبع، فإذا وجدت إنسانًا لا يظلم فذلك لعِلَّةٍ دينية أو سياسية، كخوف من ربه، أو من حكومته.

ومن البليةِ عَذْلُ من لا يرعوي عن جهلِه وخطابُ من لا يفهمُ

المعنى: من البلية على الحُرّ أن يلوم من أسرف في شهواته، وأفرط في لذّاته، واستولى على حواسه شيطان الغفلة، فلا يجد إلى الانتصاح سبيلًا، ومن البلية كذلك على الحر أن يخاطب من لا عقل له فلا يفهم ما يقول، فهو والجماد سيان.

والذلُ يظهِرُ في الذليلِ مودةً وأودُّ منه لَمَنْ يَودُّ الأرقمُ

المعنى: الحاجة ذلّ تكلف الإنسان ما ليس من طبعه، فقد يظهر الإنسان لمن يبغضه المودّة لذله منه وخوفه، فلا تغرنّك ذلة الذليل، يظهر لك المودة، ويبطن لك

البغض، فهو شرّ من الحية الخبيثة، التي تُظهر لمن لامسها عدم الأذى بلين الملمس و(عند التقلب في أنيابها العطب).

ومن العداوةِ ما ينالُكَ نفعُه ومن الصداقةِ ما يضرُّ ويؤلمُ

المعنى: يقول: رب عداوة جلبت إليك نفعًا، أقله التحفظ من وقوع المهالك، ورب صداقة أعقبت لك ضرًا وألمًا، أورثهما عدم التوقي ممن تصادقه، ويدخل في هذا المعنى المثل السائر(عدو عاقل خير من صديق جاهل).

يَرى الجبناءُ أن العجزَ عقْلٌ وتلك خديعةُ الطَّبْعِ اللَّئيمِ

المعنى: أنَّ الرجل الجبان الذي يهاب ركوب الغمار في سبيل درك المعالى وبلوغ الأماني؛ يرى أن عجزه عن ذلك من العقل والحكمة، وليست الحقيقة كما ظن، وإنما هي خدعة يخدع بها نفسه كل رجل خامل الذكر، ساقط القدر، ليطري عجزه، ويزين خموله.

وكلُّ شجاعةٍ في المرء تغنيْ ولا مِثلَ الشجاعةِ في الحكيمِ

المعنى: الإقدام يغني، والجراءة تجدي في كل حال، فكل شجاعة نافعة للمرء، إلا أن نفعها في الحكيم أتم وأكمل، وذلك أن الشجاعة ربما كانت طريقًا لحتفه وأودت بروحه، فيذهب شهيد التهور، وقتيل ثأر شجاعته الخرقاء.

وكمْ مِنْ عائبٍ قولًا صحيحًا وآفتُه من الفَهْمِ السقيمِ

المعنى: إذا مرض فهم المرء ضل في الرأي، وأخطأ في الحكم، فيرى بفهمه السقيم الكذب صدقًا، والخطأ صوابًا، ويعيب ما لا يُعاب.

والأسَى قبلَ فُرقَةِ الروحِ عجزٌ والأسى لا يكونُ بعد الفراقِ

المعنى: لايحسن بك أن تحزن للموت قبل وقوعه؛ لأن ذلك ينغص عليك العيش؛ ولأنك عاجز فلا تستطيع أن تدرأ عن نفسك الموت بحزنك، وإذا وقع الموت فلا عليك، إذ لا عِلْمَ لك بوقوعه حتى تحزن، وفي هذا البيت حث على الشجاعة، وتحذير من الجبن، وتهوين للموت؛ لئلا يخافه الإنسان فيتحاشى من الإقدام، وينثني عن اقتحام صعاب الأمور، وفي هذا المعنى يقول المتنبي:

وإذا لم يكنْ من الموتِ بُدٌّ فمن العجزِ أن تكون جبانا

*****

والغِنَى في يَدِ اللئيمِ قبيحٌ قدرَ قبحِ الكريمِ في الإملاقِ

المعنى: قبيح بالأيام أن نرى فيها اللئيم غنيًا والكريم فقيرًا، وذلك لأنَّ الغنى في يد اللئيم سلاح يُحارب به الكرام، ويساعده على تنفيذ لؤمه. والكريم إذا أملق كان مثله كمثل المنهل العذب إذا نضب ماؤه، أو البدر في الليلة الظلماء إذا احتجب ضياؤه.

وإذا كانتِ النفوسُ كباراً تعبتْ في مُرَادها الأجسامُ

المعنى: إذا قويت الهمة، وكبرت النفس تعب الجسم، في غاياتها الكثيرة، ومطامعها المختلفة، والبيت من قصيدة يمدح بها سيف الدولة، وقد عزم على الرحيل عن أنطاكية.

ولـو كـان النسـاءُ كمـنْ فَقَـدْنا لفُضِّـلتِ النسـاءُ علـى الرجـالِ

المعنى: لو أن نساء العالم بلغن من الكمال والعفاف ما بلغت هذه المفقودة؛ لتفوقن على الرجال في الفضل، إذ هي اليتيمة العصماء في عقد الفضيلة، والبيت من قصيدة يرثي بها والدة سيف الدولة.

وما التأنيثِ لاسمِ الشَّمسِ عيبٌ ولا التَّذكيرِ فَخْـرٌ للهـلالِ

المعنى: لا يكون تأنيث المفقودة مدعاة إلى الحط من قيمتها، أو ذريعة على التقليل من كرامتها، فالشمس مؤنثة، وقد فضلت القمر في الضياء، فنوره مستمد من نورها، وشأوه في الفضل دون شأوها، تلك وسيلة محسوسة تذرع بها المتنبي إلى تفضيل المرأة على الرجل وهذا من أحسن الأساليب وأبدع الخيال.

فإنْ تَفُـقِ الأنـامَ وأنتَ منهـم فإن المسـكَ بعضُ دم الغـزالِ

المعنى: يقول ـ وقد انتقل في القصيدة من الرثاء إلى مدح سيف الدولة ـ: أيها الملك العظيم إن فضلت الناس وأنت من جملتهم، وتعيش بينهم، ومشارك لهم في الجنس، فلا غرابة، فقد يفضل بعضُ الشيء كله، فالمسك وهو بعض دم الغزال، قد فاق أصله جملة، فربّ واحد قد فاق أمة، وبعض قد فاق جملة.

من كانَ فوقَ مَحَلِّ الشمسِ موضعُهُ فليسَ يرفعُـهُ شيءٌ ولا يضـعُ

المعنى: يقول مخاطبًا سيف الدولة: من بلغ من الفضائل غايتها، وحل من المنازل أسماها، وحاز من الشجاعة أقصاها، فلا يرتفع بنصرة أحد، ولا يتضع بخذلانه، وإنك أيها الملك العظيم لكذلك، فشجاعتك فوق كل شجاعة، وقدرك

فوق كل قدر، تواضعت الشمس عن موضعك الذي يشتاق إليه كل سيد، ويقصر عن إدراكه كل عظيم.

فقد يُظَن شجاعًا من به خَرَقٌ وقد يُظَن جَبَانا من بِهِ زَمَعُ

المعنى: قد يخطئ ظنُ الإنسان فيطوح به عن الحقيقة، فيتوهم مَنْ بِهِ حماقة وخفة شجاعًا، ويظن من تعتريه رعدة من الغضب جبانًا، فالعبرة بالتجربة، فهي التي تصيب بها كبد الحقيقة، وكأنه يقول لسيف الدولة: إني قد سبرت حالك، فإذا مدحتك بعد التجربة فلا أخطئ في مدحي إياك.

إنَّ السِّلاحَ جميعُ الناسِ تحمله وليس كل ذوات المِخْلَبِ السَّبُعُ

المعنى: ليس كل رجل يحمل السلاح شجاعًا يقوى على المبارزة، كما أنه ليس كل ذي مخلب سبعًا يفترس بمخلبه، فقد يتقلد السلاحَ الجبانُ، وقد يوجد من ذوات المخالب ما دون السبع، فما كل أصفر دينارًا لصفرته، ولا كل حلو سكرًا لحلاوته.

وما الخوفُ إلا ما تَخَوفَهُ الفَتَى ولا الأمن إلا ما رآه الفتى أمنا

المعنى: الخوف والأمن ناشئان عن اعتقاد الإنسان في الشيء، رسولان يبعث بهما الوهم، وعرضان يُحدثهما الوجدان، فإذا اطمأن قلب المرء إلى شيء صار أمنًا عنده، وإن كان غير مأمون، وإذا فزعت نفسه منه صار خوفًا، وإن كان غير مخوف، والبيت من قصيدة يمدح بها سيف الدولة، وكان قد توقف عن الغزو لما سمع بكثرة جيش الروم.

وحيدٌ من الخُلانِ في كل بلدةٍ إذا عَظُمَ المطلوبُ قَلَّ المُسَاعِدُ

المعنى: يقول: أنا منفرد عن الأصدقاء الذين يعتمد عليهم في الخطوب المتفاقمة، والنازلات الشديدة، فما لي من مساعد على تحقيق ما أطلب؛ وذلك لعظم مطلبي، وإذا عظم مطلوب المرء قل من يساعده عليه، والبيت من قصيدة يمدح بها سيف الدولة.

بذا قَضَتِ الأيامُ ما بين أهلِها مصائبُ قومٍ عندَ قومٍ فوائدُ

إن طبع الأيام سرور قوم بإساءة آخرين، وما رأينا حادثًا من حوادث الأيام إلا سُرَّت به طائفة، وسيئت به أخرى، فالدّهر يومان، يومٌ لك، ويومٌ عليك ﴿**وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ..**﴾ [آل عمران: ١٤٠].

وفي تعبِ مَن يَحْسُدُ الشَّمسَ نورها ويَجْهَدُ أن يأتي لها بضريبِ

المعنى: يقول: إنّ من يحاول أن يأتي لسيف الدولة بنظير، كمن يحاول أن يأتي للشمس بمثل، فهو بين الناس كالشمس بين الكواكب، فكما أن الشمس لا يعدلها في ضوئها واحد من الكواكب، كذلك سيف الدولة، لا يعدله في فضائله أحد من الناس، ومن تكلف فهو كمن يرقم على صفحات الماء.

ويقول في قصيدة يمدح فيها سيف الدولة.

ومَنْ صَحِبَ الدَّنيا طويلًا تقلّبتْ على عينيه حتَّى يرى صدقها كِذْبا

المعنى: من أحب الدنيا لزيادة ترف، وبسطة رزق، ورفيع منصب، لا يلبث أن يراها

قد تقلبت على عينه، فتريه عكس ما رأى، فيستحيل نعيمه بؤسًا، وسعته إملاقًا، ويتبين له أنّ الدنيا غاشَّة لمن استرشدها، ومغوية لمن أطاعها كما قال أبو نواس:

إذا امتحن الدَّنيا لبيب تكشَّفت لـه عـن عـدوّ فـي ثياب صـديقِ

*****

ومن تكن الأُسدُ الضواري جدوده يكنْ ليله صبحًا ومطعمه غصبا

المعنى: من اشتد أزره في قومه، وقوي ركنه بينهم، لا تتعرض له في طريق مراده عقبة، ولا تستعصى عليه أمنية، ينال ما يريد من أعدائه قهرًا، ويعود له العسير يسيرًا.

أعيذُها نظـرات منكَ صادقةً أن تحسَبَ الشَّحمَ فيمن شَحمُه ورمُ

المعنى: اعصم نظراتك من أن لا تكون نظرات يقين، فأنت إذا نظرت إلى الشيء بحسب ظاهره تصب منه كبد الحقيقة، فلا تغلط فتكون كمن ظن الورم شحمًا، والسراب ماء، وقد أراد المتنبي بهذا البيت أن يعاتب سيف الدولة، حيث توهم كل من يدعي الشعر شاعرًا، وشبه حاله في ذلك بحال من ظن الورم شحمًا، والبيت من قصيدة يعاتب بها سيف الدولة في محفل من العرب.

وما انتفاعُ أخي الدنيا بناظِرِه إذا استوتْ عنده الأنوارُ والظُلَمُ

المعنى: ماذا يستفيد الإنسان من البصر إذا تساوت عنده الأشياء وأضدادها، فلم يفرق بين الغث والسمين، وبين النور والظلمة، وكأن المتنبي يقول لسيف الدولة: يجب أن تميز بيني وبين أولئك الساقطين الذين قربتهم من مجلسك، بدعوى أنهم شعراء، كما تميز بين الأنوار والظلم.

إذا رأيتَ نيوبَ الليثِ بارزةً فلا تظنَّنَّ أن الليثَ يبتسمُ

المعنى: إذا رأيت الأسد كشر عن أنيابه فلا تحسب ذلك منه تبسمًا؛ لأن الأسد لا يبتسم؛ وإنما هو بذلك يتحفز للوثوب، وكأن المتنبي في هذا البيت قاس نفسه بالأسد، في أنه إذا ضحك أمام الجاهل، كان ذلك منذرًا بقرب الانتقام، ومؤذنًا بحلول الافتراس.

وبيننَا لو رَعيتَم ذاكَ معرفةٌ إن المعارفَ في أهلِ النُّهى ذِمَمُ

المعنى: قد جمعتني وإياكم رابطة الصحبة، وهي عند ذوي العقول الراجحة عهد يجب الوفاء به.

شر البلادِ مكانٌ لا صديقَ به وشر ما يكسبُ الإنسانُ ما يَصِمُ

المعنى: أسوأ البلاد حالًا بلدٌ لا تجد فيه صديقًا تأنس بودّه، وتسكن نفسك إلى كريم فعله، يشاطرك السراء والضراء، وأخبث الربح ما ألصقَ بك العار، وألحق بك البوار.

وشرُّ ما قنصَتْه راحتي قَنَصٌ شُهبُ البُزَاةِ سواءٌ فيه والرَّخَمُ

المعنى: أخبث ربح ربحته في حياتي ما شاركني فيه الرفيع والوضيع، كما أنّ أخبث صيد ظفر به الصياد ما شاركه فيه البزاة الشهب مع رفعتها واختيارها أطيب الفريسة، والرخمُ مع دناءتها ووقوعها على أردأ ما يصاد. يريد المتنبي أن ما منحه سيف الدولة من العطايا شاركه فيه أهل الغباوة والجهالة، فليست من المنح الخاصة بنظرائه، والتحف اللائقة بمثله. فشبه نفسه بشهب البُزاة في الرفعة وعدم الرضا بالدون، وشبه غيره من الشعراء الساقطين بالرخم في الضعة.

لَعَـلَ عَتبَـكَ محُمـودٌ عواقِبُـهُ وربَّما صَـحَّتِ الأجْسَـامُ بالعِلَلِ

المعنى: لعلّ ما أحدثه الوشاة من لومك إياي محمود العاقبة، مشكور المغبة، فقد يفسد العضو الواحد بالكيّ، فتصلح به بقية الأعضاء، فالعُودُ لا يظهر أريجه إلا بعد أن يحترق، والصديق لا تزيد محبته إلا بعد أن يفترق، فرب لوم أفضى إلى احتفاء، ورب علة بعثت على تعجيل الشفاء، والبيت من قصيدة يعتذر بها إلى سيف الدولة.

لأنَّ حِلْـمَكَ حِلـمٌ لا تَكَلَّفُـهُ ليس التكحلُ في العينين كالكحلِ

المعنى: يقول مخاطبًا سيف الدولة: إن حلمك أيها الملك العظيم حلم طبعت عليه، فلا يتكلفه غيرك من الناس، وحلم الطبع غير حلم التكلف، كما أنَّ حسن الكحل الذي يكون خلقه في العين غير حسن الاكتحال.

وليسَ يَصِحُّ في الأفهامِ شيءٌ إذا احتـاجَ النَّهارُ إلى دليلِ

المعنى: إذا احتاج أحد إلى إقامة البرهان على وجود النهار، وقد عمّ نوره الآفاق، فاحكم عليه أن ليس في ذهنه شيء صحيح من البديهات والنظريات، وقد شبه المتنبي شعره بالنهار، فمن أنكر فضله فكأنما أنكر وجود النهار، وهذا من أجود التشبيهات وأبدع الخيال، والبيت من قصيدة قالها في مجلس سيف الدولة وكان يمتحن الفرسان.

وما كَمَدُ الحسادِ شيئًا قصدتُه ولكنه من يَزْحَمِ البحرَ يغرقِ

المعنى: يقول: إن أولئك الحسدة الذين ينازعونني في فضائلي، رجعوا من

ذلك بالغلّ الذي أفعم صدورهم، وقطع أمعاءهم، على أنني لم أتعمد الضرر، فكأن مثلهم في ذلك، مثل الذي يتعرض مريج غمار البحر فيغرق، وما كان قصد البحر أن يغرقه، والبيت من قصيدة يمدح فيها سيف الدولة ويذكر الفداء الذي طلبه ملك الروم.

وإطراقَ طرفِ العينِ ليسَ بنافعٍ إذا كانَ طرفُ القلبِ ليسَ بمطرقِ

المعنى: العبرة بما يلحظه القلب، لا بما تلحظه العين، فالقلب ملك الحواس، وهي مسخرات بأمره، فلا يكون إلاّ ما يطلبه، فإذا أغضت العين عن شيء، وقد اتجه إليه القلب، فلا يُجدي إغضاؤها.

أيَدْري ما أرابَكَ من يُريبُ وهلْ تَرقَى إلى الفَلَكِ الخُطُوبُ

المعنى: أتدري تلك الآلام التي ساورتك، وهذه النّازلات التي أحدقت بك، بمن تحل؟! وممن تنال؟! وكيف تصل إليك الخُطُوب، وقد ساكنت النجوم جوارًا، فكنت في المنزلة نظير فلك السماء، وهل ترقى إلى الفلك الخطوب؟! والبيت مطلع قصيدة قالها عند اشتكاء سيف الدولة من دُمل.

وما قَتَلَ الأحرارَ كالعفو عنهمُ ومَنْ لكَ بالحرِّ الذي يَحْفَظَ اليدا

المعنى: الحُرُّ إذا أنت عفوت عن زلته، وصفحت عن سقطته، أثر ذلك في نفسه تأثيرًا يفوق وخزات السنان، فكأنما قتلته بعفوك وطعنته بعطفك، وقلما تجمعك الأيام بحر يراعي الجميل، ويستبقي المعروف، والبيت من قصيدة يهنئ فيها سيف الدولة بعيد الأضحى.

إذا أنتَ أكرمتَ الكريمَ ملكتَـهُ وإنْ أنتَ أكـرمـتَ اللئيـمَ تمردا

المعنى: الكريم إن أنت أوليته منك إحسانًا فقد أسرت نفسه، وملكت قلبه، وأما اللئيم، فإن عطفت عليه، زدته تعديًا وتطاولًا، فإنّ إكرامك إيّاه يطمعه فيك؛ فينهال عتوًا وتحملًا.

ووضعَ النَّدى في موضعِ السَّيفِ بالعلا مضرٌ كوضعِ السَّيفِ في مَوْضِعِ النَّدَى

المعنى: الحكيم من يتفرس في الناس، فيعامل كلاً بما يلائم حاله من لين وشدة، يخاشن في مواضع المخاشنة، ويلاين في مواضع الملاينة، فإذا هو عكس الآية، واستعمل الإحسان في موطن الإساءة، والإساءة محلّ الإحسان، أضر ذلك بعلاه، وأبعده من بلوغ مناه، وطوّح به فى مهواة لا يسعه النجاة منها.

وأَتْعَبُ من ناداك مَن لا تجيبُهُ وأغيظُ مَنْ عاداك من لا تُشاكلُ

المعنى: يقول: أتعب حاسديك بمخاطبتهم إياك من ترفعت عن مجاوبته، وتنزهت عن مشافهته، وأشد أعدائك عليك حنقًا من لا يماثلك في منزلتك، ولا يضارعك في درجتك، والبيت من قصيدة يمدح بها سيف الدولة عند دخول رسول ملك الروم عليه.

على قدرَ أهلِ العزم تأتي العزائمُ وتأتي على قدرِ الكرامِ المكارمُ

المعنى: تكون مطالب المرء التي يعزم عليها، والغايات التي يُوطن النفس على بلوغها، بمقدار ما بلغه من عالي الهمَّة وقوة الإرادة، فإن كان كبير النفس قويّ العزم، كان الأمر الذي يعزم عليه عظيمًا، وكذلك المكارم تكون على قدر ذويها،

فمن كان من الناس أكرم كان ما يأتيه من المكارم أعظم، والبيت مطلع قصيدة يمدح بها سيف الدولة.

وما الحسنُ في وجهِ الفتَى شرفًا له إذا لم يكنْ في فعلِه والخلائقِ

المعنى: يبلغ المرء الشرف والرفعة من كماله لا من جماله، ومن حسن مخبره لا من بهاء منظره، فلا يغنيه جميل الخلقة، مع قبيح الفعل والخليقة، والبيت من قصيدة يذكر فيها إيقاع سيف الدولة بقبائل العرب.

وما بلدُ الإنسانِ غَيرُ المُوافقِ ولاأهلُهُ الأدنونَ غَيْرُ الأصَادقِ

المعنى: كل بلد زكا خيره، وطاب هواؤه، ووافقك مناخه، وتوافرت لك فيه أسباب النعيم، فهو بلدك الحقيقي، وكل ناس أخلصوا لك النصيحة، ومحضوا لك الود، فهم أهلك الأدنون، وعشيرتك الأقربون، وفي هذا البيت حث على التغرب عن الوطن، إذا ضاق به العيش، وساءت الحال.

وإذا لم تجدْ من النَّاسِ كُفْوًا ذاتُ خِدْرٍ أرادتِ الموتَ بَعْلا

المعنى: يقول: إذا لم تجد ربة العفاف، وذات الخدر والصَّينة من الأزواج من هو كفوٌ لها في شرفها، ويماثلها في حسبها ونسبها، اختارت الموت لها زوجًا، فهو يتكفل بصيانتها، ويحتفظ بأثيل مجدها، وكريم حسبها، والبيت من قصيدة يعزي فيها سيف الدولة بأخته.

وإذا الشَّيخُ قال: أُفٍّ فما مَـ ـلَّ حَيَاةً وإنما الضَّعْفَ مَلاّ

المعنى: إذا رأيت كبير السن يتضجر، فلاتظن أنه سئم الحياة، وملّ العيش،

وإنّما هو ملّ الضعف والهرم، واستكره الكبر والألم، تلك العوامل التي تحجب عنه لذة الحياة، وحلاوة العيش، فالحياة تستحب في الشبيبة والكبر، حب الحياة طبيعة الإنسان.

آلــةُ العيـشِ صِـحةٌ وشَــبابٌ فـإذا ولَّيـَا عـن المــرء ولَّـى

المعنى: لا يطيب العيش إلا بشيئين: الصحة والشباب، فإذا فقد الإنسان أحدهما أو كليهما، اختلّ نظامه، وذهب رونقُه، ودنا أجلُه، وخاب أملُه.

وإذا مـا خـــلا الجبــانُ بأرضٍ طلـبَ الطَّعـنْ وحـده والنــزالا

المعنى: إذا انفرد الجبان بأرضه، وبعد عن الأقران بنفسه، طلب المنازلة والمجالدة، وأظهر الرغبة في القتال والمبارزة، حتى إذا جاءه شجاع يُبارزه فرَّ عن قِرنه، ورجع إلى عادته من جُبنه، والبيت من قصيدة يمدح بها سيف الدولة ويذكر نهوضه إلى الثغر.

من أطَاقَ التمـاسَ شــيءٍ غِلاَبًا واغتصـابًا لم يَلْتمسْــه سُـؤَالا

المعنى: طبع الإنسان على حب الغلبة والاستظهار، فإذا هو استطاع أن ينال الشيء بالاغتصاب والعنف، أبى أن يلتمسه بالسؤال والرّفق، ليبين للنّاس أنّه من ذوي الحول والطولِ، وقد أكد هذا المعنى بالبيت بعده.

كـلُ غــادٍ لحاجــةٍ يتمنَّــى أن يكــونَ الغَضـنفَرَ الرِّئْبَـالاَ

المعنى: كل ساعٍ وراء حاجة يستنفد فيها منتهى الوسع، ويزاولها بغاية الجهد،

يودّ لو يبلغ قوة الغضنفر الرئبال ـ وهما اسمان للأسد ـ، حتى يكون في مقدمة الساعين، ومنقطع النظير بين الناجحين.

الرَّأيُ قبلَ شَجَاعةِ الشُّجعانِ هو أولٌ وهي المحلُّ الثَّانِي

المعنى: الرأى له المكانةُ الأولى من فضائل الإنسان، وللشجاعة المكانة الثانية، فالشجاعة من غير رأي لا تجدي، ورُبما أودت بحياة صاحبها؛ لأنها تكون تهوراً صرفًا، والبيت من قصيدة يمدح بها سيف الدولة عند قدومه من بلاد الروم.

ولربما طَعَنَ الفتى أقرانَه بالرَّأيِ قبلَ تَطَاعُنِ الأقرانِ

المعنى: قد ينال الإنسان بعقله ما لا يستطيع أن يناله بشجاعته، وذلك أنه ربما طعن الفتى نظراءه برجاحة عقله، وأصالة رأيه، قبل الطعن بشفرة السيف، وحدّ النّصال، فينصب لهم الحبائل بتدبيره، ويحتال للإيقاع بهم والاستظهار عليهم بعقله.

لولا العُقولُ لكان أدنى ضَيْغمٍ أدنَى إلى شرفٍ من الإنسانِ

المعنى: العقل قوة فوق القوى، ومزية دونها المزايا، لولاه لكان أقل حيوان مفترس أقرب من الإنسان إلى الشرف، وأوسع منه في النفوذ والسلطان.

وكلٌّ يرَى طُرُقَ الشجاعة والنَّدى ولكن طبعَ النَّفسِ للنفسِ قائدُ

المعنى: الشجاعة والندى فضيلتان، لا يجهل أحد طريق الوصول إليهما، ولكن طبيعة النفس تثني عزم المرء عن الشجاعة خشية العطب، ويصده عن الجود مخافة الإملاق، والبيت من قصيدة يمدح بها سيف الدولة.

وعادَ في طلبِ المتروكِ تاركُه إنا لنغفلُ والأيامُ في الطَّلبِ

المعنى: من المتعين على الحكيم أن يعد لحوادث الأيام عدّتها، ويتأهب لدرء نازلاتها، فإذا هو غفل عن ذلك، فالأيام له بالرصد، تطالبه بما ترك، وتحاسبه على ما فرط، هذا تفسير البيت على أنه من الحكم، أما باعتبار سياق قصيدة الرثاء بموت أخت سيف الدولة الكبرى، فمعناه أنّ الموت تركها، ثم عاد فأخذها.

وما قضى أحدٌ منها لُبَانَتَهُ ولا انتهى أَرَبٌ إلا إلى أَرَبِ

المعنى: نشأ الإنسان وقلبه مفعم بالشهوات، مزدحم بالغايات، فلا تنقضي له من الأيام حاجات، فإذا ما تمت مأربة سنحت له أخرى.

ومن تَفكَّرَ في الدَّنيا ومَهجَتِه أقامه الفكرُ بين العجزِ والتعبِ

المعنى: شغفُ الإنسان بالدنيا ورونقها يبعثه على الكدّ في طلبها، وحرصه على سلامة نفسه يثني عزمه عنها، فلا يزال بين عاملين يتناوبانه وهما: حب الحياة وحب السلامة، فالأول يحبب إليه التعب والعمل، والثاني يزين له العجز والكسل.

إذا كنتَ تَرضى أن تعيشَ بِذلةٍ فلا تَسْتَعِدَنَّ الحُسَامَ اليَمَانِيَا

المعنى: إنما تحملُ السيف لتدرأ به عن شرفك ومنعتك، ولتكون رفيع المقام عزيز الجانب، فإذا كنت ترضى أن تعيش ذليلًا ممتهنًا، فماذا تصنع بالسّيف أيها الوضيع؟! والبيت من قصيدة يمدح بها كافورًا.

فما ينفعُ الأُسْدَ الحياءُ من الطوى ولا تُتَّقَى حتى تكونَ ضَوَاريا

المعنى: للأسد من بين الحيوانات صولة، يمتاز عنها بأنه يستحيي أن يتعرض لفريسة غيره، فيأكل منها ولو بات على الطَّوى، لكنه لا يُغنيه حياؤه من الجوع شيئًا، إلاّ إذا نشط وخرج من عرينه ساعيًا متصيدًا حتى يسد عوزه، كذلك لا يُخشى جانبه، ولا يُغضى من مهابته، إلاّ إذا كان مفترسًا ضاريًا، وفي البيت حث على السَّعي وعلُوّ الهمَّة.

إذا الجودُ لم يُرْزَق خلاصًا من الأذى فلا الحمدُ مكسوبًا ولا المالُ باقيًا

المعنى: الجود والمال ذريعة إلى الحمد، والامتنان به أذى يستوجب الذّم، فإذا لم يكن الجود من المنّ خالصًا، ضاع المال من غير أن يكتسب المرء حمدًا، ولم يتّخذ على الجود أجرًا.

و للنفسِ أخلاقٌ تدل على الفَتَى أكانَ سخاءً ما أتى أم تَسَاخيا

المعنى: قد يتكلف الإنسان من الفعال ما ليس من طبعه، فيجود وطبعه البخل، ويتشجع وعادته الجُبن، ولكن الخصال إذا تكررت فتباينت، والسجايا إذا تتابعت فتغايرت، انكشف النّقاب عن حقيقة ما يأتيه؛ إن كان طبعًا أو تطبعًا، فسُرعان ما تتغير الفعال المتكلفة، فهي أشدّ انقلابًا من الريح الهبوب.

فما الحَداثةُ من حلمٍ بمانعةٍ قد يُوجد الحلمُ في الشُّبانِ والشيبِ

المعنى: صغر السن لايمنع من أن يكون الإنسان حليمًا، فقد نجد الشاب يستعمل الأناة والحلم، كما يفعل الشيخ، نعم، وإن كان للشاب نزق وخفة، فليس ذلك أمرًا مطردًا، فلكل قاعدة شذوذ، والبيت من قصيدة يمدح بها سيف الدولة.

وما الصارمُ الهندي إلا كغيره إذا لم يُفارِقهُ النجادُ وغِمدُهُ

المعنى: الشيء لا يظهر فضله على غيره إلاّ بالتجربة، وكذلك السيف القاطع ما دام في غمده فلا يفضل السيف المسلول، وإنما يعرف مضاؤه إذا استل من جفنه، وحصل به الطعن، وقد شبه المتنبي نفسه بالصارم، حيث جهل الناس فضله، فلم يدركوا الفرق بينه وبين غيره، والبيت من قصيدة يمدح بها كافورًا.

إذا ساءَ فعلُ المرءِ ساءتْ ظنونُه وصدَّق ما يعتادُه من توهُمِ

المعنى: المرء إذا لؤم طبعه، وساءت فعاله، ساءت لذلك ظنونه بالناس، فيتوهم السوء في كل شيء يراه أو يسمعه، فكل حركة تقع أمامه من أحد يتوهمها شرًا له، وإيقاعًا به، لأنه كثير المساوئ، فهو - دائمًا - يوجس في نفسه خيفة، ويرقب شرًا، والبيت من قصيدة يمدح بها كافورًا.

وأحلمُ عن خِلِّي وأعلمُ أنَّهُ متى أجزِه حلمًا على الجهلِ ينْدَمِ

المعنى: إذا فعل الصَّديق ما لا يليق، صفحت عنه حلمًا، لاعتقادي أنّ مجازاته بالحلم خير؛ لأنه يبعث في نفسه الندم على ما فرط منه، فيرعوي عن غيه، ويثوب إلى رشده، ويبادر إليّ مُعتذرًا سميعًا مُطيعًا، ويعلم أنني نِعم الصَّديق.

لمن تَطْلَبُ الدُّنيا إذا لم تُردِ بها سرورَ محبٍّ أو إساءةَ مجرمِ

المعنى: إنما يسعى الإنسان وراء متاع الحياة من جمع المال، واعتلاء المناصب، ابتغاء سرور المحب ومعونته، أو إساءة العدو ونكايته.

إنما تَنْجحُ المقالةُ في المر ء إذا صَادقَتْ هوىً في الفؤادِ

المعنى: إنما يبلغ القول النجاح ويفضي إلى المقصود منه إذا وافق هوى في القلب، وميلًا في النفس، وإلا فهو صرخة في واد، ونفخة في رماد، والبيت من قصيدة ينفي بها عن ابن الإخشيد الميل إلى ما يقوله الوشاة.

وكلُّ امرئٍ يُولي الجميلَ محبَّبٌ وكلُّ مكانٍ ينبتُ العزَّ طَيِّبُ

المعنى: كل امرئ تعود فعل الجميل وإسداء الخير، وبسط الكف محبب إلى الناس، يستميل نفوسهم بإحسانه، ويستعطف قلوبهم بكرمه، وكذلك كل مكان يجد فيه المرء الترف والعزّ، فهو المكان الطّيب، والبيت من قصيدة يمدح بها كافورًا.

ولو جازَ أنْ يحووا عُلاك وهبتَها ولكنْ من الأشياءِ ما ليس يُوهبُ

المعنى: يقول: إنك قد بلغت من المعالي غاية لا تُدرك، ومن الجود شأوًا لا يُلحق، ولو كانت علاك مما يُوهب لوهبتها، ولكنّ من الأشياء مالا يسوغ هبته كالمجد والعلا.

ما كلَّ ما يتمنى المرءُ يدركُه تجري الرياحُ بما لاتشتهي السُّفنُ

المعنى: أمانّي المرء شتى، وما كل ما يتمناه يُدركه، فقد يتهيأ المرء للشيء ويُعد له عدته، فتعترض له عقبات تصدّه عن إدراكه، وذلك كربان السفية يتوجّه بها طريقًا في اليمّ، فتطوح بها الرياح إلى غير ما قصد، والبيت من قصيدة قالها عندما بلغه أنّ قومًا نعوه في مجلس سيف الدولة بحلب وهو بمصر.

غَيرَ أن الفَتى يلاقي المنايا كالحاتٍ ولا يلاقِي الهَوانا

المعنى: سهل على نفس الحُر أن يتجرّع كأس الحمام، ولايذوق طعم الهوان، فالموت ألم ساعة، والهوان آلام تترى، والبيت من قصيدة يمدح بها كافورًا.

وإذا لَمْ يكنْ من الموت بُدٌّ فمن العجزِ أن تكونَ جبانًا

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾، فالجبان لا ينفعه الفرار، والشجاع لا يضره الإقدام، والعاجز من إذا ساورته مهمة هاب الخطر وقدم الحذر.

ومن هابَ أسبابَ المنيةِ يَلْقَها ولورامَ أسبابَ السَّماءِ بسلمِ

*****

كلّ ما لم يكنْ من الصَّعبِ في الأنـ ـفسِ سَهْلٌ فيها إذا هو كانا

المعنى: يقول: الأمر الشديد إنما يصعب على النفس قبل وقوعه، فإذا وقع سهل.

لولا المشقةُ سادَ النَّاسُ كلُهم الجودُ يفقرُ والإقدامُ قتَّالُ

المعنى: في الجود والإقدام سيادة الإنسان، ولولا ما يجده من مشقة على النفس من جَرَّائِهما لرأيت الناس كلهم سادة، فالجود يشق على النفس مخافة الفقر، والإقدام يعزّ عليها فرارًا من القتل، وإنَّ للسيادة قومًا خاطروا من أجلها بالنفوس، وبذلوا أنفس الذخائر، وقليل ما هم، والبيت من قصيدة يمدح بها أبا شجاع فاتكًا.

ولـم أرَ فـي عـيوبِ النَّاسِ شـيئًا كنقـصِ القـادرين علـى التَّمـامِ

المعنى: لا عـيب فـي النـاس أبلـغ من عـيب مـن اسـتطاع أن يكون كـامـلا في الفـضل والنبل فلم يفـعل، إذا لا عُـذر لـه في ترك أسـبـاب الكمـال وفي وِسْـعِـهِ تحصيلها، وأنه الأولى بالعيب من الناقص الذي لا يقدر على الكمال.

وللسِّـرِ منى موضـعٌ لا ينالُـه نديمٌ ولا يفضـي إلِيـه شَـرابُ

المعنى: مكان السر من نفسي بحيث لا يبلغ حقيقته الصديق، ولا يدُب إليه دبيب الشـراب مع تغلغله في البدن، فللسـر عندي مكان حـريز، وموضع حصين، والبيت من قصيدة يمدح به كافورًا.

أعزُّ مكانٍ في الدُّنا سَرجُ سابحٍ وخيرُ جليسٍ في الزَّمـانِ كِتَابُ

المعنى: أفضل مكان يرى فيه الإنسان عزّه وسؤدده ظهر السابح، وخير جليس لا يشقى به المرء الكتاب، وذلك أن الفرس مطيـة الشـجاع ورفيق النشـيط، وتبلغ عليه ما تريد من نحو التجول في الأرجاء، ومبارزة الأعداء، أما الكتاب، فيقص عليك من أنباء ما قد سبق، ويتحفك بما فيه الكفاية، وينتهج بك سبيل الهداية.

ومـن جَهِلَـتْ نفسُـــه قــدرَهُ رأَى غيـــرُه منـــهُ مالا يَـــرى

المعنى: من لم يعرف لنفسه حقها فأتبعها هواها استرسلت مع الشهوات، وغررت به فيمـا لا تحمد عقباه، وزينت له السّوء، فيستحسن من خصاله ما يستقبحه النّاس من أمثاله، والبيت من قصيدة يذكر فيها خروجه من مصر.

أينَ الذَّي الهرَمانِ من بنيانِه ما قَومُهُ ما يومُه ما المصْرَعُ

المعنى: يقول: أين ذلك الملك المعظم الذي شاد الهرمين الكبيرين والبناءين الشامخين، أقامهما شاهدين بأثيل مجده، ونادر قدرته، شاب الزمان وهما شابان، ودرست معالم بانيهما، وهما قائمان، وغيبته بطن الأرض، وهما ظاهران، أين قومه على كثرة عَددهم وعُددهم، عفت آثارهم، وذهبت رسومهم، وفي هذا البيت تنبيه على أنّ كل حيّ هالك لا محالة، ولا سبيل إلى البقاء، والبيت من قصيدة يرثي بها أبا شجاع.

تَتَخلفُ الآثارُ عن أصحَابِها حينًا ويدركُها الفناءُ فتتبعُ

المعنى: يقول: تبقى آثار المرء بعده حينًا من الدهر لتدلّ على بديع صنعه، وواسع علمه، وفرط ذكائه، وغزير فضله، ثم يُصيبها بعد ذلك ما أصابه من الفناء، فتذهب تلك الآثار كأن لم تغن بالأمس، تلك طبيعة الحياة وتصاريفها.

ولم تزلْ قلةُ الإنصافِ قاطعةً بين الرجالِ ولو كانوا ذوي رحمِ

المعنى: ترك الإنصاف داعية القطعية، ومجلبة الشقاق بين الناس، وإن كان بينهم صلة رحم، وجامعة قرابة.

إذا أنتَ لم تنصفْ أخاكَ وجدتَهُ على طرفِ الهِجرانِ إن كانَ يَعقِلُ

والبيت من قصيدة يرثي بها فاتكًا.

ذَرِيني أَنَل ما لا يُنالُ من العُلى فصعبُ العُلى في الصَّعبِ والسَّهلُ في السَّهلِ

المعنى: يخاطب نفسه التي تلومه على ركوب الأهوال، يقول: اتركيني أيتها النفس أنل من المعالي ما لم ينله غيري مما تكلُّ دونه الهمم، فما كان منها سهلًا قريب التّناول

فلا يتطلب تعبًا، وماكان منها صعبًا بعيد المنال فلا يكون إلاّ بمزاولة صعاب الأعمال، وركوب غمارها، والبيت من قصيدة يمدح بها أبا الفوارس.

تُرِيدينَ لقيــانَ المعالــي رخيصــةً ولابدُّ دونَ الشَّهدِ من إبرِ النَّحــلِ

المعنى: يقول: أتريدين أيتها النفس نيل العلى عفوًا بلا تعب، وهي كالشَّهد الذي لا يجنيه مشتاره إلاّ بعد أن يلاقي وخزات إبر النّحل، فكأنك تنزعين إلى طلب المستحيل وإدراك ما لا يكون.

obeikandl.com